السورة السابعة

الكافرون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ
مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ
دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾

هذه هي السورة السادسة في ترتيبنا التراجعيّ لدراسة سوَر القرآن الكريم. وعدد كلمات السورة ٢٧ كلمة، يتكرّر معظمها أكثر من مرّة، ولكنّ ما استطعنا أن نضع أيدينا عليه من مواقع جديدة يصل إلى ٤٥ موقعاً.

وتبرز الشخصيّة اللغويّة للسورة في عنصر التوازي بين آياتها، مع التكرار المتلوّن بشكلٍ خاصّ، ثمّ في احتوائها الأزمان الثلاثة، الماضي والحاضر والمستقبل، عبر هذا التكرار، وكذلك في استغناء جميع الأفعال المتعدّية الأربعة التي اختُتمت بها بعض الآيات عن مفعولها.

أولاً: الألفاظ والمصطلحات

١- قُلْ:

هذه هي السورة الرابعة التي تمرّ بنا حتى الآن، بعد الناس والفلق والإخلاص، مبتدئةً بهذه البداية القرآنيّة المتفرّدة (قل)، ويبقى سورةٌ أخرى في القرآن الكريم تبدأ بهذا الفعل أيضاً، وهي سورة (الجنّ).

وربّما كان من المفيد أن نذكّر هنا بما أثبتناه سابقاً من قرآنيّة هذا الفعل:

- وروده بكثافةٍ غير عاديّةٍ في القرآن
- الابتداء غير المعهود للوحدة الأدبيّة - السورة
- إغفال ذكر المتكلّم
- إغفال ذكرالمخاطَب
- عدم تعديته باللام
- وجود شرطٍ قبله حُذف مع الفاء الرابطة لجوابه، والتقدير هنا: إن سألوك أن تتبادلَ معهم عبادة آلهتهم فقل..
- ورغم أنّ الفعل جاء هنا بمعنى: أخبِرهم (قلْ لهم) وليس بمعنى (اِقرأ، أو: ردّد) كما جاء في المعوّذتين، وهذا يوافق المعنى الذي عرفه الشعر الجاهليّ، فإنّه مع ذلك لم يتعدّ باللام، وإلاّ لكانت الآية: (قلْ للكافرين) وبهذا ظلّت له شخصيّته القرآنيّة المميّزة.

٢- الكافرون:

لفظٌ قرآنيٌّ جديدٌ لم يعرفه العرب من قبل. وربّما عثرنا على مشتقّاته قليلاً في الشعر الجاهليّ، ولكن في معنىً مختلفٍ تماماً: وهو التغطية، أو كفران النعمة.

opeikan.com

إنّه يُطلَق هناك على النهر أو البحر (لأنهما يغطّيان الشمس حين تغيب وراءهما) أو على الليل (لإخفائه الأشياء) أو على السحاب المظلم، أو الفارس المغطّى بالسلاح، وربّما أُطلق على المُزارع، ومثاله ما ورد في الآية:

- ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠]

وهو عند الشاعر الجاهليّ في صيغة المفرد دائماً، ومن ذلك قول المتلمِّس الضبعي (ت ٤٣ ق.ه) حين ألقى صحيفته المشهورة في النهر فنجا من القتل:

وألقيتُها بالثِنْيِ مِن جَنْبِ كافرٍ كذلك أَقني كلَّ قَطٍّ مدلَّـلِ

فإن جاء فعلاً فهو غالباً بمعنى (يجحد أو يكفر النعمة) كقولهم:

فجزاهُ اللهُ مِن ذي نَعمـةٍ وجزاه اللهُ إنْ عبدٌ كَفَـرْ

المثقّب العبديّ (ت ٦٣ ق.ه)

واذكُرِ النُعمى التي لم أنسَها لكَ في السّعيِ إذا العبدُ كَفَرْ

عَديّ بن زيد (ت ٣٦ ق.ه)

٣ حتى ١٠ - أعبد (ومشتقاتها السبعة الأخرى في السورة):

سبق أن وقفنا على الفعل (نعبدُ) في فاتحة الكتاب، وتحدّثنا عن المعنى الجديد والمختلف لهذا الفعل في الإسلام، وفرّقنا بين معنيي العبوديّة لله والعبوديّة للبشر، فأظهرنا ما في الأولى من تقاربٍ وتجاذبٍ بين العابد والمعبود، وما في الثانية من تنافرٍ وتباغضٍ بين العبد وسيّده.

ورغم استعمال الفعل ومشتقّاته ثماني مرّاتٍ في السورة، حيناً مع الكافرين، وحيناً مع المؤمنين، فقد أصبح المعنى الإسلاميّ الجديد هو المعنى المتداول لفعل العبادة في أيّ نصّ قرآنيٍّ أو إسلاميّ، مع الأخذ بعين الاعتبار الفوارق العقديّة بين عبادة المسلم لله وعبادة غيره له، بحيث لم يقبل الإسلام عبادة أهل مكّة لله، رغم إصرارهم على أنّهم كانوا يعبدونه حقّاً، ولكن على طريقتهم، ممّا

توضّحه الآية الكريمة:

- ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزُمَر: ٣]

فعبادتهم لله كانت مقرونةً بتقديسهم لأولياء مِن دونه، زاعمين أنّهم إنّما يقرّبونهم إلى الله، ويردّ عليهم تعالى هذا النوعَ من العبادة المشوّهة، لأنّ العبادة الخالصة بمعناها الإسلاميّ الجديد بعيدةٌ كلّ البعد عن مفهوماتهم الجاهليّة التي تتّخذ البشر وسيلةً إلى الله.

١١- ١٢- ما أعبد [مكرّر]:

يفرّق النحويّون بين اسمَي الموصول (ما) و (مَن) بأنّ الأول مختصٌّ بغير العاقل والثاني مختصٌّ بالعاقل.

وإذا لم يكن من جديدٍ في استعمال (ما) في الآيتين الثانية ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ والرابعة ﴿مَّا عَبَدتُّمۡ﴾؛ إذ عبّر بها القرآن في كلا الموضعين عن معبودات المشركين من الأصنام، وهي غير عاقلةٍ طبعاً، فإنّ الجديد هو في قوله تعالى ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾ في الآيتين الثالثة والخامسة، إذ عبّرت الأداة (ما) فيهما عن الخالق عزّ وجلّ.

لقد كانت لغتنا البشريّة تتوقّع أن يقال: (مَن أعبد) محلّ ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾ في الآيتين كلتيهما، ولكنّ القرآن استخدم الأداة نفسها في التعبيرعن كلا العاقل وغير العاقل في السورة.

وقد أخرج النحويّون أنفسَهم، من هذا "الحرج النحويّ" الذي واجههم في عدة مواضع من القرآن، فضلاً عن هذه السّورة، بقولهم إنّ (ما) استُخدِمت هنا للعاقل مراعاةً للمطابقة اللفظيّة، أي التناسب والتوافق بين الآيات الأربع فلا تخرج إحداها عن الأخريات بأداةٍ مختلفة؛ إذ يسوَّغ في مثل هذه المطابقات أو المقابلات ما لا يسوَّغ في الانفراد.

وقال آخرون إنها استُخدمت للعاقل، رغم أنها في الأصل لغير العاقل، على سبيل التعظيم.

ونحن لا يهمّنا، في المنهج الذي اعتمدناه لهذا البحث، إيجادُ مخرجٍ من هذا الإشكال بقدر ما يهمّنا إثباتُ جِدّة هذا الاستعمال القرآني وفرادتِه وخروجه على التقاليد اللغويّة التي تواضع عليها العرب قبل الإسلام، وما زال النحويّون يتعاهدونها حتى الآن.

١٣- دينِ (بحذف ياء المتكلّم):

هذه حالةٌ من حالات الحذف المحيِّرة التي تتكرّر في القرآن ولا نعرفها في غيره من نصوصنا الشعريّة أو النثريّة على مدى التاريخ، إلاّ أن يكون ذلك لضرورةٍ شعريّة، وهو أمرٌ نادر. لقد حذفت الياء هنا، وكذلك في مواقع عديدةٍ من القرآن الكريم، كتابةً ولفظاً، مثلما حذفت الألف والواو في بعض الأحيان، ولغير أيّة ضرورةٍ، حسب قواعدنا، كما رأينا في الجزء الأول من البحث حين درسنا فنّ الالتفات. ومن ذلك قوله تعالى:

- ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ [القمر: ٦]

- ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾ [العلق: ١٨]

- ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ ﴾ [يوسف: ٥١]

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

١- يا أيّها:

هذا النداء بـ (يَٰٓأَيُّهَا) ليس بجديدٍ على العرب، لكنّ خصوصيّته القرآنيّة تأتي من أنّه يتوجّه غالباً إلى الجماعة، على حين يقتصر عند الجاهليين على المفرد وحده، ومنه قول البرّاق بن روحان (ت ١٦٠ ق.هـ):

يا أيّها الراكبُ المجتازُ تَرفُلُ في حَزْنِ البلادِ وطَوراً في صحاريها

وقول عنترة (ت ٢٢ ق.هـ):

يا أيّهـا الملِكُ الذي راحـاتُهُ قامت مقامَ الغيثِ في أزمـانهِ

ويغلب في القرآن الكريم أن يتلو (يا أيّها) الاسمُ الموصول الدالُّ على الجماعة، ولا سيّما جماعة المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وهو يكثر في السور المدنيّة، وأقلّ منه لفظ (الناس) وهو يكثر في السور المكّية حين كان الوحي ما يزال في بواكيره والخطاب موجّهاً إلى أناسٍ لم يعرفوا الإسلام ولا الإيمان بعد، ثم يلي ذلك درجةً ألفاظُ (الملأ) و (الرسل) و (النمل). أمّا إذا حدث أن تلاه مفردٌ فلفظ (النبيّ) غالباً، أو بعض صفاته (الرسول، المزّمّل، المدّثّر).

ورغم أنّ هذا النوع من النداء يرِد في القرآن الكريم ما يقرب من ١٤٠ مرةً فمن النادر أن نجده في الحديث الشريف، أو حتّى على ألسنة الصحابة، وإنما هو هناك (أيّها) بدون (يا) غالباً، وكذا الأمر في لغتنا أيضاً، ممّا يؤكّد خصوصيّته القرآنيّة، كما يؤكّد مرّةً أخرى، وهذا هو الأهمّ، التميّز الأسلوبيّ بين لغتَي القرآن الكريم والحديث الشريف، رغم التأثير القرآنيّ المفترَض في لغة الرسول ﷺ.

٢- لا أعبُد:

تخيّلوا أنّكم تريدون أن تعبّروا عن معنى الآية الثانية بلغتكم أنتم، بل بلغة أيّ كاتبٍ أو شاعرٍ تتخيّلونه، قديمٍ أو حديث، فكيف تبدأون جملتكم؟ ستقولون على الأغلب:

إنني لا أعبد، أو:

أنا لا أعبد

فالضمير (أنا) وكذلك أداة التوكيد (إنّ) -التي اعتدنا ابتداء الكلام بها أحياناً- قد اختفيا من الآية بحيث خرجت عن الشكل المألوف الذي كنّا نتهيّأ لسماعه. إنّ هذا، كما سبق أن أكّدنا دائماً، خروجٌ على الأعراف والتقاليد اللغويّة التي استقرّت لدى العرب قبل نزول القرآن الكريم، وظلّت مستمرّةً عندهم حتّى يومنا هذا.

٣- لا أعبد [مكرّر]:

واختلف المفسّرون واللغويّون حول معنى العبارة، هل هي مقتصرةٌ على الحاضر، أم تتجاوزه إلى المستقبل.

فذهب بعضهم إلى الرأي الأول، وفرّق بينها وبين ما جاء في الآية الرابعة ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ﴾ فقال إنّ معنى الأولى: لا أعبد الآن، والثانية: ولا أنا عابدٌ في المستقبل.

وقال آخرون: بل كلتاهما تشمل الحاضر والمستقبل معاً.

ولو ذهبنا إلى الرأي الأول لكان علينا، في لغتنا، أن نقول: أنا لا أعبد -كما سبق أن ذكرنا- ولو ذهبنا إلى الرأي الثاني لكان علينا أن نقول في لغتنا: أنا لن أعبد، بإضافة (لن) التي تخصّصها للمستقبل.

وفي كلتا الحالين تخرج الآية عن طرائقنا المعتادة في التعبير كما هو واضح.

obeikan.com

٤- ما تعبدون:

تابعوا معي حتى النهاية تلك الجملة التي تخيّلتم أنّكم تقولونها، فماذا أنتم قائلون؟ إنّكم ستتوصّلون بسهولة إلى الجملة العاديّة التالية:

أنا لن أعبد ما تعبدونه

إذن فأنتم تعيدون إلى الجملة مفعول الفعل (تعبدون) أي الضمير (الهاء) وقد اختفى من الآية، وهو اختفاءٌ يمثّل ظاهرةً قرآنيّةً تتكرّر في آياتٍ عديدة، وستتكرّر في خواتم/ فواصل الآيات الثلاث التي ستتلو هذه الآية أيضاً. ويتحدّث البلاغيّون كثيراً عن الجمال البيانيّ الذي يضفيه هذا الحذف في كثيرٍ من الآيات على التعبير القرآنيّ.

٥- ٦ - ما أعبُد [مكرّر]:

وردت هذه العبارة مرّتين في السورة، وحُذف المفعول به في المرّتين، فلم يقل (أعبده) كما هو العرف في لغتنا العاديّة.

٧- عبدتُم:

مرةً أخرى يختفي المفعول به من هذه الجملة فتقتصر على الفعل (عبَد) والفاعل (التاء)، ولم تُلحق بالمفعول به لتكون (عبدتموه).

٨ إلى ١٠ - ولا أنتم عابدون [مكرّر] + ولا أنا عابدٌ:

ما ينطبق على الموقع السابق ينطبق على هذه المواقع الثلاثة جميعاً. فإذا كانت الجمل الثلاث مختصّةً بالمستقبل؛ كان من الضروريّ أن نضيف إليها، في لغتنا، أداة المستقبل (لن) وأن نحوّل اسم الفاعل (عابد/ عابدون) إلى فعلٍ (أعبُد/ تعبدون) فنقول:

ولن تعبدوا ما أعبُد،
ولن أعبُدَ ما تعبدون،
ولن تعبدوا ما أعبُد

١١ – تعبُدون – عابدون – عبَدتُم:

رغم ورود مشتقّات الفعل (يعبد) ثماني مرّات في هذه السورة المؤلّفة من ٢٧ كلمة فإنّ التكرار يقع في لفظين فقط من تلك الألفاظ الثمانية وهما (عابدون، أعبد)، وهذا لسببٍ بسيطٍ هو تكرار الآية التي تتضمّنهما: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝﴾.

وما يلفت النظر حقاً هو تنقُّلُ اللفظ الذي يختصّ بعبادة الكافرين بين ثلاثة أشكال، بل لنقُل ثلاثة أزمان: الماضي (عبدتم) والحاضر (تعبدون) والمستقبل (عابدون). وهكذا نستطيع قراءة السورة بالمفهوم الآتي:

قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ . لَآ أَعۡبُدُ [الآن] مَا تَعۡبُدُونَ [أنتم الآن]. وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ [مستقبلاً] مَآ أَعۡبُدُ [أنا حاليّاً أو مستقبلاً]. وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ [مستقبلاً] مَّا عَبَدتُّمۡ [أنتم في الماضي وما تزالون تعبدونه حاليّاً]..

ألاحظتم كيف جُمع اللفظ (عابدٌ) الدالُّ على المستقبل مع اللفظ (عبدتم) الدالّ على الماضي في آيةٍ واحدة؟ فكأنّه إنباءٌ مسبَقٌ لهم بأنّ عبادتهم لأصنامهم ستكون في مستقبل الأيام شيئاً في حكم الماضي، وإلاّ فلماذا لم يقل في الآية الثانية أيضاً: لا أعبد ما عبدتم؟ ولم يقل في الآيتين الثالثة والخامسة: ولا أنتم عابدون ما عبدتُ؟ أو لماذا لم يقل: لا أنا عابدٌ ما أنتم عابدون، ولا أنتم عابدون ما أنا عابد، ولا أنا أعبد ما أنتم تعبدون؟

إنّ هذا التغيّر يرجّح لدينا إرادة الفوارق الزمانيّة بين الآيات، كما يوضّح بعضَ الشيء غرابةَ التغيّر الاشتقاقيّ والزمنيّ ضمن الجذر الواحد للألفاظ الثمانية في السورة، وهو أمرٌ جعل العربيّ الأول، في تقديرنا، يقف مشدوهاً أمام هذا التنقّل السريع والمتلوّن ولكن على حبلٍ مفرد، أو جذرٍ لغويٍّ واحد!

١٢- لكم دينُكم:

حاولوا الآن من جديد محاولتكم الأولى، وتخيّلوا أنّكم تعبّرون بلغتكم الخاصّة عن معنى هذا الجزء من الآية، فكيف سيكون؟ ستقولون، وهو نفسه ما أقوله أنا أيضاً، شيئاً من هذا القبيل:

أنتم لكم دينكم، وربّما:

أنتم تؤمنون بشيء، أو:

إنّكم تَدينون بشيء..

وإذن فقد اختفى من مطلع الآية ضمير المخاطبين (أنتم) أو التأكيد الافتتاحيّ (إنكم) وقد كنّا حريصين على الابتداء بأحدهما في مختلف خياراتنا البشريّة، ولكنْ (للقرآن لغته وللبشر لغتهم) رغم حتميّة تأثّر لغتنا بلغة القرآن، كما فعلت أنا الآن في هذه الجملة الأخيرة التي وضعتها بين قوسين وقد صغتها على نمط الآية الأخيرة، ولكنّ هذا التأثّر سيبقى ضمن حدود، فلا يتجاوزها إلى ما لا يمكن تقليده في لغة القرآن الكريم، كما سبق أن برهنّا.

١٣- وليَ دينِ:

تابعوا معي الآية حتى نهايتها، واختاروا الطريقة التي اعتدتم أن تعبّروا بها عن معنى الجزء الثاني فيها، فماذا تختارون؟ هل سيختلف ما تقترحونه كثيراً عن إحدى هذه العبارات:

أنتم لكم دينكم وأنا لي ديني، أو:

إنكم تؤمنون بدينٍ وأنا أؤمن بدينٍ آخر، أو:

أنتم تَدينون بشيءٍ وأنا أَدين بشيءٍ مختلف..

وهكذا نجد أنفسنا مرةً أخرى وقد بدأنا الجزء الثاني من الآية بضميرٍ منفصلٍ هو هذه المرة ضمير المتكلّم (أنا) وقد اختفى من الآية القرآنيّة، ممّا أكّد اختلافها في كلا الجزءين عن لغتنا العاديّة.

١٤ – لكم دينُكم وليَ دينِ:

وأخيراً نجد الآية بأكملها وقد تخلّت عن الرابط اللغويّ التقليديّ الذي اعتدنا في لغتنا العاديّة أن يربط الجملة مع ما سبقها، وهو عادةً أحد الحرفين الواو أو الفاء، منفردَين أو مرتبطَين بأداةٍ أخرى مثل (إنّ)، فنقول مثلاً:

فلكم دينُكم وليَ دين، أو:

فإنّ لكم دينكم وليَ دينِ ..

ثالثاً: السبائك القرآنية:

١– قُلْ يا أيها:

سبيكةٌ خاصّةٌ بالقرآن وحده، وهي مؤلّفة من فعل الأمر (قل) وأداة النداء (يا) والمنادى (أيّ) الذي أُلحقت به (ها) التنبيه، وتتكرّر في القرآن خمس مرّات. وهي مختلفةٌ عن السبيكة القرآنيّة الأخرى التي يتلو فيها أداةَ النداء منادىً عاديٌّ غيرُ مركّبٍ من (أيٌّ) و (ها)، من مثل قوله تعالى:

– ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]

٢– يا أيّها الكافرون:

سبيكةٌ خاصّةٌ بالنداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ المتلوّ بجمع مذكّرٍ سالمٍ منتهٍ بالواو والنون، وهي سبيكةٌ تقتصر على هذه السورة ولا تتكرّر مرّةً أخرى في القرآن الكريم. إنّنا لن نجد فيه مثلاً: (يا أيّها المؤمنون) أو (يا أيّها المرسَلون) وإنّما هناك سبائك

تُقاربها من غير أن تُطابقها، كالسبيكة التي يتلو النداءَ فيها جمعٌ غير سالم، كما في قوله تعالى:

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾ [النمل: ١٨]

وكالسبيكة التي يتلو النداءَ فيها جمعٌ سالم، ولكنّها مجرّدةٌ من أداة النداء (يا) كقوله تعالى:

- ﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ [الذاريات: ٣١]

٣- لا أعبدُ ما تعبدون:

هذه السبيكة القرآنيّةُ تقوم على (لا النافية) و (ما) الموصولة، ويتبع الأولى فعلٌ للمتكلّم المفرد، ويتبع الثانية الفعلُ نفسه ولكن لجمع المخاطَب.

ومن السهل علينا أن نميّز اختلافها عن سبيكةٍ قرآنيّةٍ أخرى قد تقترب منها بعض الشيء، من غير أن تتطابق معها، كقوله تعالى:

- ﴿ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٦]

أو عن السبيكة القرآنية الأخرى في قوله تعالى:

- ﴿ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٣]

٤- ٥- ولا أنتم عابدون ما أعبُد [مكرّر]:

هذه سبيكةٌ شديدة القرب من السبيكة السابقة، وتختلف عنها بدخول الضمير المنفصل (أنتم) بين (لا) وفعل العبادة، الذي يتحوّل هنا إلى اسم فاعلٍ للجمع (عابدون)، كما يتحوّل الفعل الثاني إلى صيغة المتكلّم المفرد (أعبد).

٦- ولا أنا عابدٌ ما عبدتُم:

وهذه أيضاً سبيكةٌ شديدة الشبه بسابقتها، ولكنها ليست هي نفسَها، فقد تحوّل الضمير المنفصل من المخاطَبين (أنتم) إلى المتكلّم المفرد (أنا)، وكذلك

obeikan.com

اسم الفاعل الجمع (عابدون) إلى اسم الفاعل المفرد (عابدٌ)، وتحوّل المضارع المتكلّم المفرد (أعبد) إلى الماضي الغائب الجمع (عبدتم).

٧- لكم دينكم وليَ دينِ:

اختصّت هذه السبيكة بهذا التوازي أو التطابق الذي يتحقّق بين نصفها الأول ونصفها الثاني، فكلاهما مؤلّفٌ من خبرٍ مقدّمٍ في شكل شبه جملةٍ (لكم - لي) يليه مبتدأٌ مؤخّرٌ مضافٌ إلى ضميرٍ متصلٍ به (دينكم - ديني). ويقترب منها كثيراً، ولكن ليس إلى درجة التطابق، العبارة القرآنيّة التي تتردّد في أكثر من سورة:

- ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥ والشورى: ١٥]

٨- السورة بكاملها:

لا شكّ أنّ لكلّ سورةٍ في القرآن الكريم شخصيّتها الخاصّة، ونظامها اللغويّ المختلف.

وإذا كنّا عاجزين الآن عن الإمساك بأسرار البناء اللغويّ العامّ للسوَر الكبيرة، فيمكن أن نحدّد بسهولةٍ معقولةٍ الشخصيّةَ اللغويّة للهيكل العامّ الذي بُنيت عليه سورةٌ صغيرةٌ كهذه السورة، كما فعلنا مع سورتي الفلق والناس.

إنّ فيها أربع آياتٍ متتاليةٍ من أصل ستّ آياتٍ تبدأ بالأداة النافية (لا)، كما يتكرّر الفعل (أعبد) مع مشتقّاته ثماني مرّات، والضمير (أنتم) مرّتين، واللفظ (دين) مرّتين.

وهذه الأرقام، وجميعها مزدوجةٌ كما تلاحظون، يدعّم تأثيرَها ويقوّي شخصيَّتها ازدواجيّةُ الجمل والعبارات داخل السورة أيضاً.

ويتمثّل هذا الازدواج للآيات أو العبارات القرآنيّة في كلٍّ من الثنائيّة ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ و ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، والثنائيّة ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ و ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، والثنائيّة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ و ﴿وَلِىَ دِينِ﴾.

obeikan.com

رابعاً: مواقع منفتحة:

١ إلى ٨ – أعبد (ومشتقّاتها السبعة الأخرى):

قد عرفنا مّما سبق حجم التساؤلات التي أثارتها هذه السورة بسبب الصياغة الخاصّة التي صيغت بها بعض الألفاظ المشتقّة من الفعل (عبد).

فالكلمات: أعبد، تعبدون، عابدون، عابد، عبدتم، تمتزج فيها الأزمان: الماضي والحاضر والمستقبل، حتى نكاد لا نضع أيدينا على زمنٍ إلاّ وأعيننا تنظر إلى زمنٍ آخر، مّما يعطي هذه الألفاظ، ومن ثم الآيات التي تضمّنتها، أبعاداً متعدّدةً تمنحها مزيداً من المرونة في الفهم والتأويل.

وهذا ما حيّر المفسّرين أشدّ الحَيرة، وهم يرون إلى هذا المقدار من الألفاظ المتقاربة، ولكن المختلفة، تتوالى في السورة، بل إلى السرّ وراء تكرار الآيات نفسها أحياناً، كالآية ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾.

وهكذا ذهب بعضهم إلى أنّ الغرض من تكرار الآية هو مجرّد التأكيد، ورجّح آخرون أنّه تعالى أراد من نبيّه ﷺ بهذا التكرار التأكيديّ أن يُيئس الكافرين من طمعهم في استجابته لهم حين عرضوا عليه أن يتبادل معهم عبادة آلهتهم فقالوا: تَعبُد آلهتَنا سنةً ونعبد إلهَك سنةً، وتعبدها سنةً ونعبده سنةً، فردّ عليهم تعالى بطريقتهم التناظريّة نفسها، استهزاءً بهم وسخريةً من عرضهم.

ومّما يزيد تعدّدَ الاحتمالات في توجيه معاني السورة ذهابُ بعضهم إلى أنّ الأداة (ما) في قوله تعالى ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ وقولِه ﴿مَآ أَعْبُدُ﴾ مصدريّةٌ وليست اسم موصول، فيكون المعنى على هذا: لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي. وهكذا لا يقتصر الأمر في هذه الحال على تبادل الآلهة بل يتعدّاه إلى تبادل طريقة العبادات أيضاً.

خامساً: جوامع الكَلِم:

١- لكم دِينُكم وليَ دينِ:

لقد أضحت هذه السبيكة القرآنيّة المتميّزة صيغةً متداوَلةً بين الناس منذ نزول القرآن الكريم بها، وقد نستخدمها في أيّ نقاشٍ يدور بيننا وبين من يخالفنا في الرأي أو المبدأ أو المذهب أو العقيدة، أو ربّما الذوق والاهتمامات، وحين نيأس من إقناعه برأينا أو مذهبنا نحسم الموقف معه قائلين: لكم دينكم ولي دين، أو: لكم لغتكم ولي لغتي (كما قال مرّةً أحد الأدباء) أو: لك رأيُك ولي رأيي.

٢- السورة بكاملها:

إنّها إحدى السور القلائل التي شجّع الإسلامُ الناسَ على حفظها وتردادها، ومنَحها من الأجر والثواب ما لم يحظَ به غيرها من طوال السور. وكما عدَلَت سورة (الإخلاص) في الحديث الشريف ثلثَ القرآن، عدلت (الكافرون) رُبُعَه:

- عن فَروة بن نوفل عن أبيه ﵁ أنّ النبيّ ﷺ قال لنوفل: اِقرأ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ثمّ نَمْ على خاتمتها فإنّها براءةٌ من الشِّرك[1]

- عن عائشة ﵂ قالت: كان رسولُ الله ﷺ يصلّي ركعتين قبل الفجر، وكان يقول: نِعم السورتان هما يُقرأ بهما في ركعتَي الفجر: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[2]

- عن أنس بن مالكٍ ﵁ أنّ رسول الله ﷺ قال لرجلٍ من أصحابه: هل تزوَّجت يا فلان؟ قال: لا واللهِ يا رسولَ الله ولا عندي ما أتزوّج به، قال: أليس معك

---

(١) السجستاني، سليمان بن الأشعث. **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، (د. ت.)، ج٢، ص٧٣٣، حديث رقم ٥٠٥٥.

(٢) القزويني، **سنن ابن ماجه**، مرجع سابق، ج١، ص٣٦٣، حديث رقم: ١١٥٠.

(قل هو الله أحد)؟ قال: بلى، قال: ثُلُث القرآن، قال: أليس معك (إذا جاء نصرُ الله والفتح)؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال أليس معك (إذا زُلزلت)؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: تزوّجْ[1]

obeikan.com

(١) الترمذي، **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**، مرجع سابق، ج٥، ص١٦٦، حديث رقم ٢٨٩٥.